

# تناول الأدب العراقي القديم في جهود الدارسين المحدثين

أ.د. علي حداد\* 

في البدء:

تتجسد في تراث العراق القديم جملة من الانجازات والتوصيفات التي جعلته جديراً بالاهتمام والاستعادة، بدءاً بأولوية ذلك التراث وريادته لأفاق من الإنتاج المعرفي والثقافي الناضج، منسجمة مع قدمه التاريخي، وتقدمه على كثير من منجز الإنسانية التي عاصرتة. وبذا فإن استعادة الحديث عنه إنما تحمل في طياتها اعترافاً بمكانة ذلك التراث واعتزازاً بما تحقق فيه من توصلات قيمية وجمالية عالية.

وتتبدى نضاعة ذلك الانجاز الثقافي- في واحد من مجالات ما أعلن عنه- في الأدب ذلك الذي اشتغل على موضوعه كثير من الدارسين، ولاسيما أولئك المختصين بدراسة تاريخ العراق القديم، والباحثين في آثاره ومعالم حضارته.

ومع أن حديث الأدب عند كثير من أولئك الدارسين- عراقيين وأجانب- قد ورد في طيات تداولهم تاريخ بلاد الرافدين وما نشأ فيها من حضارات، فقد بدا بيناً توقفهم عند مساحة طيبة من أمر المنجز الأدبي يدرسونها فيه بإمعان تفصيلي وتقصر ناضج.

لقد جاء مسعى الكتابة عن التراث الأدبي القديم عند معظم أولئك الدارسين من منطلق الرصد التاريخي لمنجز الإنسانية وتراثها الذي كان لأسلافنا الذين استوطنوا العراق حصة طيبة منه. ولعل مكنونات ما حققه ذلك التراث وما انماز به هو الذي أثار إعجاب كثير منهم، فشغلوا بها رسداً وتأملاً، وتوقفوا عندها بعيون من الدهشة والإعجاب.

أما عند الدارسين العراقيين فسينضاف إلى ما مر ذكره سبب له مسحة الانتماء الوطني، والانشداد المشتمل على الفخر بالانتساب إلى هذه الأرض، وتبني نزوع التواصل مع تراثها- والأدبي منه بخاصة- وذلك ما قاد بعض أولئك الدارسين إلى تخير (موضوعة) ما كان الدارسون من غير العراقيين قد استوقفتهم بالتوسع والاستفاضة، كما وجدنا الأمر في كتابات العراقيين. وكأن في ذلك استجابة نبيلة لما كان الأستاذ (طه باقر) الباحث الأبرز في مجال دراسة حضارة العراق القديم قد نادى به يوماً حين قال: «نحن العراقيين علينا أن نكتب تاريخنا بجهودنا وبالمنطق الذي نحمله».<sup>(١)</sup>

(١)

تتعدد المسميات التي تحملها الإجابات الذهبية لتلبية السؤال: ما المقصود بالعراق القديم؟ إذ يستجلب ذلك ملاحظة متقصية للمراحل التاريخية التي استنبتت كل منها تسميتها الخاصة، متصلة بأطوار من الوقائع التاريخية التي محضتها توصيفاتها المائزة عما سيأتي بعدها. وهكذا فقد جرى تداول أكثر من تسمية، تستمد دلالتها من طبيعة المرحلة التاريخية التي

ربما حددتها وثائق من (الرقم الطينية) التي خلفها أهل هذه المرحلة أو تلك، وهو ما يعني أن راهن تداول تلك التسميات متصل بما تهيأ لأبناء تلك المراحل من معرفة للكتابة والتدوين التي سنقف عند دورها الفاعل في تكريس تلك المسميات- ضمن ما أعلنت عنه من كشوفات حضارية- وهو ما يؤشر مساحة من الموثوقية في هذا الجانب، فضلاً عما يعنيه من انعدام المعلومات عن سكان العراق قبل تلك المراحل، واللجوء إلى شيء من الافتراض والتخمين الذي قد يأخذ جانباً غيبياً لا يركن إلى موثوقيته العلمية تماماً.<sup>(٢)</sup>

يمكن القول إن أقدم تلك التسميات هو ما وصفت به المنطقة الواقعة في أقصى جنوب العراق بأنها (بلاد سومر) ذلك المسمى الذي أطلق على أغلب الظن بحدود منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ومنذ أواخر عصور فجر السلالات<sup>(٣)</sup> لتأتي بعد ذلك، وفي حدود أواسط الألف الثالث قبل الميلاد تسمية المنطقة ذاتها بـ (بلاد أكد).<sup>(٤)</sup> ومنذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد سيجري تداول تسمية (بلاد بابل) للدلالة على بلاد (سومر وأكد)، وهي التسمية التي تعني القسم الجنوبي

والوسطي من العراق بصورة عامة.<sup>(٥)</sup>

وبالمقابل فقد حظي القسم الشمالي من العراق القديم هو أيضاً بتسميات أخرى خاصة، فقد عرف في بادئ أمره باسم (بلاد سوبارتو)<sup>(٦)</sup> ومنذ الألف الثالث قبل الميلاد وحتى تم للأشوريين استيطان هذا الجزء من العراق فقد شاع استخدام مصطلح (بلاد آشور).<sup>(٧)</sup>

وحين تحقق للإغريق أن يرودوا هذه المنطقة فقد تخيروا لها تسمية بلاد ما بين النهرين (ميزو بوتاميا)، وهم يقصدون بها الجزء الواقع بين دجلة والفرات حتى حدود بغداد جنوباً.<sup>(٨)</sup> وقد شاعت هذه التسمية لدى الكتاب اليونان منذ القرن الرابع قبل الميلاد. كما تبناها الرومان. ويبدو أن تلك التسمية مشتقة مما ورد في (التوراة) من تسمية للأراضي الواقعة بين الفرات والخابور، ثم شاع استخدام المصطلح للدلالة على العراق بصورة عامة وتبينته اللغات الأوربية الحديثة، بعد ترجمة التوراة إليها.<sup>(٩)</sup>

لقد أثارت تسمية العراق بـ (بلاد ما بين النهرين) (ميزو بوتاميا) بعض الدارسين فأبدى تحفظه عليها، فرأى بعضهم أن هذا المسمى «غامض بحد ذاته».<sup>(١٠)</sup> ولعل الباحث العراقي

البارز في دراسة تراث العراق القديم الأستاذ (طه باقر) كان من أشد الرافضين لتلك التسمية، منادياً بتسمية (بلاد الرافدين) عوضاً عنها، وهي التسمية التي تداولها في مؤلفاته كلها،<sup>(١١)</sup> ليتبنى ذلك معه معظم الدارسين العراقيين المحدثين.<sup>(١٢)</sup> غير أن دارسين آخرين رأوا أن «استخدام مصطلح (العراق القديم) هو أقرب المصطلحات للواقع وأكثرها التصاقاً بتاريخ الحضارات التي قامت في هذا الجزء المهم من العالم».<sup>(١٣)</sup>

ومع أن أصل اشتقاق كلمة (العراق) وبداية استخدامها لازال موضع جدل الباحثين<sup>(١٤)</sup> فإن اسم العراق قديم، وقد جرى تداوله منذ أواخر العصر الساساني ... وأطلق على الأقسام الجنوبية والوسطى من العراق،<sup>(١٥)</sup> في حين أطلق مسمى (الجزيرة) للدلالة على الأراضي الواقعة بين النهرين حتى حدود بغداد جنوباً.

## (٢)

تتجلى حركية الفعل الإنساني الذي يكتنف الأفراد والمجتمعات في بعدين دالين، يتنافذان ويتخلق أحدهما نامياً من خلال الآخر، الأول: (ثقافي)، حيث تشخص ممارسات وسلوكيات لها طبائع خاصة هي نتاج ملاحمة الإنسان للمكان،



وما ينتج عن تكيفه فيه من (الثقافة) التي عرفت بأنها «ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات الاجتماعية وكل القدرات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في جماعة».<sup>(١٦)</sup>

أما البعد الآخر فيتمثل بمستوى المتحقق (الحضاري) الذي بدت فيه تمثلات ذلك الوجود الثقافي وما طوره المجتمع في مجمل فعالياته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعمرانية، إذ (الحضارة) هي «مختلف أنشطة الإنسان وسلوكياته تلك التي لا تعتبر أفعالاً انعكاسية فطرية أو غرائزية»<sup>(١٧)</sup> بل تشتمل على مظاهر متعددة، كـ «النظم والعادات والتقاليد القانونية والاجتماعية والفنون على اختلافها والصناعة وكل ما يجب على الإنسان أن يتعلمه من أفراد مجتمعه»<sup>(١٨)</sup> ويبدع فيه ويطوره نحو الأفضل. وإذا ما بدا شيء من التداخل بين تجليات البعدين (الثقافي) و(الحضاري) ومساحة اشتغالهما، فلعلنا نستطيع التفريق بينهما من خلال القول إن لكل مجتمع محدداته (الثقافية) التي تميزه عن سواه، وربما يلتقي ببعض جوانبها مع غيره. في حين تستحيل (الحضارة) تعبيراً عن مستوى

ما أرتقت إليه تلك الممارسات الثقافية، وأعلنت عن نفسها، ودعت غيرها- أو أجبرته بتفوقها- كي يمتاح منها. وعلى هذا فلكل مجتمع هوية ثقافية ينماز بها، ولكن قد لا يتوافر بعض تلك المجتمعات على ما يرتقى به منها إلى مصاف (الحضارة)، إذ هي «مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، تتجسد عبر إحرار التقدم في ميادين الحياة والعلاقات الاجتماعية، وفي مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي التي تنتقل في المجتمع من جيل إلى جيل»،<sup>(١٩)</sup> بحيث تبدو أكثر تطوراً ورقياً عن سواها من الثقافات المحيطة لها، حتى أن تلك الثقافات لتتأثر بها وترنو إليها رغبة في مجاراتها.

يتحدث الباحثون في أمر نشوء الحضارات الإنسانية وتطورها عن نوعين منها، فيصفون الأولى بأنها (أصلية) أو (أصلية)<sup>(٢٠)</sup> ويعدون الأخرى (فرعية) منها. فالأصلية هي «تلك الحضارات التي نشأت من حياة بدائية بسيطة من دون احتكاك أو اتصال بشعوب أو أمم أخرى أكثر تمدناً أو حضارة»<sup>(٢١)</sup>، ويعدون حضارة (بلاد الرافدين) على رأس تلك الحضارات الأصلية أو الأصلية».

اخترعت العجلة والزجاج، والبرونز، والكتابة والتقويم<sup>(٢٤)</sup>، فكان لهم- وبجهودهم الخلاقة- أن «دخلت البشرية إلى طور الحضارة الناضجة لأول مرة في تاريخ الإنسان بانتقال وادي الرافدين من عصور ما قبل التاريخ (في أواخر الألف الرابع ق.م) إلى حياة التضرر والمدنية، بمختلف عناصر الحضارة الأساسية المميزة، كظهور المدن وأنظمة الحكم والكتابة والتدوين والقوانين المنظمة للحياة الاجتماعية والفنون المختلفة والآداب، والممارسات الدينية ومؤسساتها العامة كالمعابد والكهنة، وأسس العلوم والمعارف، والممارسات التقنية، وأجهزة الري والزراعة، وبداية السيطرة على البيئة وتسخير إمكاناتها»<sup>(٢٥)</sup>، ليصنعوا بذلك تاريخاً جديداً للإنسانية تجلى فيه دورهم المؤثر فيما حولهم، فقد «أثار انتباه الشعوب المجاورة ما كان يجري من التفجير المادي والروحي في جنوب بلاد الرافدين ووسطها، وهذا قد شكل حافزاً لتحريك الدوافع الداخلية لتلك الشعوب كي تندفع باتجاه منابع الثروة والمساهمة مع مبدعي مركزها في إدارتها، مع إضافة المزيد من الألوان الحضارية الجديدة ... كل هؤلاء إضافة إلى أهل البلاد من السومريين والآكديين والبابليين

يشير أحد الباحثين الغربيين المهتمين بتاريخ الحضارات الإنسانية الأولى إلى الأماكن التي استوطنها الإنسان القديم ومارس الزراعة فيها- بوصف الزراعة فاعلية اقتصادية أسست لمرحلة مهمة من تطور الحياة البشرية- فيذكر سفوح جبال زاغروس وفلسطين، وجنوب الأناضول، والهلال الخصيب<sup>(٢٦)</sup> وهنا- طبقاً لرأيه- ظهرت إلى الوجود أولى المجتمعات الزراعية. ولكن تلك المناطق- على أهمية ما تحقق فيها من تحول اقتصادي- لم تكن هي من أرهصت بالحضارة الإنسانية الناضجة الأولى، إذ «لم تتطور الحضارة- بالمعنى الذي تستخدم فيه الكلمة- حيث ازدهر المزارعون والفلاحون الأوائل بل تطورت في جنوب بلاد الرافدين»<sup>(٢٧)</sup>، فهناك- وعلى سهول النهرين التوأمين دجلة والفرات- تهيأ لأولى الحضارات أن تعلن عن نفسها، وأن ترهص بوجودها الحقيقي، ثم تطور معطياته، وتراكم عطاءه، مشرعة أفق التمثل المضاف لعدد من الحضارات التي راحت منجزاتها تترى متلاحقة في المكان ذاته. من خلال همة ودأب شعب حيوي ومكافح هم السومريون- وبعدهم الآكديون- الذين كانت عبقريتهم هي التي



سر الوجود، وأصل الوجود- وجدت منذ أن وجد الإنسان وميزته عن سائر المخلوقات، فإن معجزة تدوينها قد تحققت في (وادي الرافدين)، لأول مرة في مسيرة الإنسانية المضيئة». (٢٨)

ويواصل أحد الباحثين الغربيين ترسيخ الفكرة ذاتها، فقد «كانت آلاف السنين قد مرت على دخول الإنسان وادي الرافدين لأول مرة، وتوالت عليه الثقافات ما قبل التاريخية كلها متشابهة، وليست فيها واحدة تباين أية ثقافة في أي مكان من العالم عند ذلك ... ولكن ما تكاد فترة الكتابة البدائية تطل حتى تغيرت الصورة، فكأنما حضارة وادي الرافدين قد تبلورت بين عشية وضحاها. وإذا بالشكل الأساسي أو الهيكل الذي ستعيش البلاد في ضمنه وتحت سيطرته، والذي سيثير فيها أعمق أسئلتها، وقيم نفسه كما يقيم الكون لكل العصور اللاحقة ينبثق فجأة تام النمو في سماته الرئيسة»، (٢٩) وذلك ما ينص عليه أيضاً الدكتور (أحمد سوسة)، فـ «لاشك في أن الحضارة التي ازدهرت في بلاد سومر وأكد لم تتكون وتزدهر لولا توافر الكتابة. كما أن المعلومات التي توصل إليها الباحثون في مدى تقدم تلك الحضارة الغابرة ما كانت لتتوفر لولا وجود الكتابة التي سجلت

والآشوريين قد أسسوا ذلك النوع من التلاحق والتناسج ضمن كيان ملون جعل المؤرخين والآثاريين في العالم ينظرون إلى حضارة بلاد ما بين النهرين على أنها كيان متميز ومستقل عن الكيانات الحضارية المجاورة ذات الكيان الاجتماعي الواحد الذي يتكلم لغة واحدة». (٢٦) وهكذا بدا لحضارة وادي الرافدين- فضلاً عن غناها- أنها لم تكن لتستبد بسواها وتجبره على مجاراتها، قدر أنها شرعت أبوابها للتواصل والتحاور والتمثل، وتطوير صنيعها نحو الأفضل، حد أنها تركت- في أحيان كثيرة- الفرصة للآخرين أن يسطوا على منجزها، فيجبرونه لصالحهم من دونها. (٢٧)

(٢)

يجمع الدارسون على أن المتحقق الحضاري قد أرهص بقيمه على أرض وادي الرافدين في ذلك اليوم الذي عرف الإنسان العراقي القديم فيه الطريق إلى (التدوين) من خلال (الكتابة) تلك التي عدت أس (الحضارة)، فالكلمة المدونة - طبقاً لرأي الأستاذ طه باقر- «كانت ولا تزال جوهر الإنسانية، وفكرها الذي يميزها عن المملكة الحيوانية. وإذا كانت (الكلمة)- وهي

بها مآثر تلك الأقوام من علوم وطقوس دينية وشرائع وعقود ورسائل وما إلى ذلك من نشاطات حضارية ثقافية أخرى»،<sup>(٣٠)</sup> بل إنها- وفضلاً عن ذلك- أنتجت «فناً جديراً باسمه، وما صنعه هؤلاء الفنانون الأوائل يضاهاى بروعته أجمل ما صنعه الفنانون في العصور المتأخرة»<sup>(٣١)</sup>

إذا كان العراقيون القدامى قد اخترعوا الكتابة، «وكان غرضها الأول تسهيل تدوين الحسابات الآخذة بالتعقيد، كلما توسعت اقتصاديات المدن والهياكل»<sup>(٣٢)</sup>، فإن ذلك لم يكن نهاية المسعى، إذ «سرعان ما تطورت الكلمة المدونة في حضارة وادي الرافدين فصارت أدباً وتاريخاً وعلماً».<sup>(٣٣)</sup>

وفي سياق تفسير العراقيين القدامى لمجمل ظواهر الكون والوجود من حولهم، وتشخيص مصدرها الغيبي مرتبطاً بإله محدد له سطوته وتحكمه بهذه الظاهرة وذلك الوجود فقد كان من الطريف أن يندرج أمر الكتابة في مجمل تلك التصورات والتفسيرات، لا من خلال الكتابة ذاتها بل عبر تأمل فعل أداتها، تلك التي راح الكتاب، يستعينون بعيدان (القصبة) لصناعتها. يقول أحد الباحثين الغربيين مفسراً هذا الأمر: «إن ما لدينا من نصوص يدل دلالة واضحة على

أن (الأقصاب) بحد ذاتها لم تكن إلهية قط، فالقصبة الواحدة ما هي إلا نبتة، أو شيء ... ولكن للقصبة المحسوسة الواحدة على الرغم من ذلك صفات عجيبة توحى بالدهش والمهابة، ففي نموها الممرع في الأهوار قوة غامضة. وللقصبة قدرة على إتيان العجب، كالموسيقى الصادحة في ناي الراعي، أو العلامات المليئة بالمعاني التي تتركها قصبة الكاتب، فتتحول إلى أقاصيص وقصائد».<sup>(٣٤)</sup>

وهكذا فقد نظر إلى القصبة وما تنجزه من فعلين كتابي (أدبي) خاصة، عبر قلم الكاتب، وفني (موسيقي)- عبر ناي الراعي- على أنها هبة إلهية ليست كغيرها من الأشياء المادية الأخرى التي يعايشها الإنسان العراقي القديم. ومن هنا كان لابد أن يكون مصدر هذا الإلهام الذي يوجد في كل قصبة وقدرته التي لا تتغير آلهة بعينها، اختاروا لها مسمى (نيدابة) «فنيديابة هي الآلهة التي جعلت الأقصاب تمرع في المياه. وإذا لم تكن بالقرب من الراعي عجز عن تشنيف الأذان بالناي. وإذا ما رأى الكاتب أن عبارة صعبة جميلة خرجت من أطراف قصبته حمد (نيدابة) عليها».<sup>(٣٥)</sup>



أدت الكتابة دورها في الارتقاء بجوانب حياة العراقيين القدامى السياسية والاقتصادية والثقافية ووثقتها. ولاشك في أنها- مساوقة لذلك- قد فتحت أبواباً لتطور لغتهم وغناها، سواء فيما استجد لها من آفاق معرفية واحتياجات تداولية، أو فيما تكيف لها من أساليب أدائية تختلف بين مؤداها النفعي المباشر والممارسة الأدبية التي ترتقي بالسلوك اللغوي إلى فضاءات من الانشغال الدلالي والجمالي المعنى بهما، والمتخيرين لذاتهما. ولنا أن نتأمل الأمر بعين تلك الاحتياجات الإنسانية التي عايشوها، لنقول إنهم- وإن دونوا بعض ما عن لهم من الشؤون الاقتصادية والسياسية والتاريخية- فلاشك أنهم لم يدونوا ذلك كله، مثلما لا يمكن تصور أنهم وثقوا الذي تكلموه وعايشوه في حياتهم اليومية، فمن المحال أن يدون الكلام كله. ومن هنا فلا بد من الانتقاء والتخير في تدوين ماله الأهمية من شؤونهم، وما له مساحة متسعة من التلقي أكثر من سواه. ولعل الشأن الأدبي أكثر شؤون التدوين تمثلاً ووجهة اهتمام وعناية، ولاسيما حين جرى تمثله من قبل فئة تجيد الكتابة وتمتعتها، فكان أن «بقيت عملية التدوين في العصور القديمة كافة حكرًا على

طبقة معينة من النساخ أو الكتّاب. وكان هؤلاء على مراتب بحسب خبرتهم ومهارتهم المكتسبة في فنون الخط المسماري. وفي كثير من الأحيان نجد أن حرفة الاستنساخ أي الكتابة كانت تبقى زمنًا طويلاً في العائلة الواحدة، يتوارثها الأبناء عن الآباء».<sup>(٣٦)</sup>

ولعل تلك الفئة- ونظراً لكثرة أعدادها وسعة ما كانت تقوم به من أعمال التدوين والتوثيق، ومن خلال مهارتها الكتابية تلك- أصبحت فئة نخبوية لها مستواها الثقافي المميز عن سواها من العامة. ويبدو أن الأمر قد أخذ بعداً ثقافياً له صلته بطبيعة عملية التداول اللغوي السائدة في حياة العراقيين حينذاك، فقد انبنى على مساحة التباين بين اللغة المحكية في الممارسات اليومية وما جرى التدوين به حالة من (الازدواج اللغوي) عكست كشوفاتها في الآفاق التداولية والثقافية التي يعايشها المجتمع.

لقد كانت حاجتهم إلى تسمية منجزات حضارتهم وتدوينها سبباً في تطور لغتهم وثراء مفرداتها التي ما يزال بعضها متداولاً حتى عصرنا الراهن<sup>(٣٧)</sup>، غير أن تلك اللغة عايشت طبائع

الازدواج، وعلى مساحة شاسعة من التمثل. لغتهم- مثل اللاتينية في أوروبا- لغة العلم والثقافة، ويقول الأستاذ (طه باقر) «كان الطابع الثقافي ومستعملة جنباً إلى جنب مع البابلية والآشورية والسياسي المميز في الأدوار القديمة من حضارة وادي الرافدين الثقافية السومرية- بلغتها وآدابها ومعارفها المختلفة- ولكن سرعان ما برز كيان الساميين السياسي، كما برزت لغتهم في التدوين بشكلها الأكدي في عهد السلالة الأكديّة السامية»، الأمر الذي بدا عليه حتمية أن يكون هناك ازدواج لغوي بين لغة للكتابة وأخرى للتعامل اليومي<sup>(٢٨)</sup>،

(٤)

وهو الرأي الذي يقول به الدكتور (أحمد سوسة) ولكن على نحو مختلف من الإشارة إلى الحقبة التاريخية لذلك التمثل اللغوي، فعنده «إن النتائج الأدبي الذي ظهر في العصر السومري الحديث... ناجم عن اقتباس السومريين الكثير من مقومات الحضارة السامية، بعد أن احتك السومريون بالساميين خلال حكم الأكديين الساميين الذي

شمل كل البلاد ودام حوالي ٢٠٠ سنة»<sup>(٢٩)</sup>.

وإذا كان في ذلك الأمر ما يشرع الباب لمجادلة يثيرها استقراء وقائع التأثير وتاريخية السبق فيها، فإن الذي يعنيننا منه ما استتب عليه الحال من ازدواجية لغوية بينة المعالم، فـ «مع زوال السومريين من الناحية السياسية فقد ظلت

لغتهم- مستعملة جنباً إلى جنب مع البابلية والآشورية سواء أكان ذلك في استمرار تداول النصوص الأدبية والدينية والعلمية المدونة بالسومرية أم في استعمال المصطلحات السومرية الكثيرة في النصوص الأكديّة الصرفة، بحيث يصح القول أنه لا يمكن فهم النصوص المسمارية- ومنها الأكديّة- إلا بمعرفة المصطلحات السومرية»<sup>(٤٠)</sup>

ميز العراقيون القدامى- في تداولهم اللغوي- وبنضج عال بين لغة الشؤون العامة، وخصوصية التعبير التي تصنع من النص- المقال أو المكتوب- أدباً، حد أنهم تخيروا له مسماه الاصطلاحي الذي ماتزال اللغة العربية الراهنة تتبناه، فقد تصدرت كلمة (أدب - ADAB) بعض أغانيهم وترانيمهم المدونة.<sup>(٤١)</sup>

وحين قام الباحثون بتفحص سمات تلك الآداب فقد وجدوا أن ذلك النتاج الأدبي- فضلاً عن عده «مرآة صادقة تعكس كثيراً من المعتقدات والأفكار والعبادات والتقاليد الاجتماعية»<sup>(٤٢)</sup> فإن له قيمته الوثائقية الدالة، كونه «في مقدمة المصادر الأساس لمعرفة الحضارات القديمة»<sup>(٤٣)</sup>.



وبدت نماذجها- التي وصلتنا- مطابقة لاشتراطات التمثل التي أقرت- على مر العصور- للأدب تمييزاً له عن سواه من أنماط الكتابة الأخرى. وفي ذلك يقول طه باقر «وعلى الرغم من أن هذه كانت أولى المحاولات في تاريخ تطور الإنسان الأدبي، بيد أن ما يدهش الفاحص لأدب وادي الرافدين هو أنه- مع إيغاله في القدم وسبقه جميع الآداب العالمية يتميز بالصفات الأساسية التي تميز الآداب العالمية الناضجة ، سواء كان ذلك من حيث الأساليب وطرق التعبير، أم من ناحية المحتوى والموضوعات التي تناولها، أم من ناحية الأخيلة والصور الفنية والعرض القصصي».<sup>(٤٤)</sup>

ويستطرد الأستاذ طه باقر في تشخيص تلك السمة الخصيصة في أدب العراق القديم، فعنده أن ما يركز عليه النص الأدبي من خصائص- وفي الآداب الإنسانية بعامه يتمثل في:<sup>(٤٥)</sup>

- الموضوع أو الفكرة التي تعبر عنها القطعة الأدبية.

- الأسلوب الأدبي الفني، سواء كان شعراً أو نثراً أدبياً ، المتميز بطراز خاص من النظم والتأليف

المؤثر في مشاعر القارئ أو السامع. ولتبيان

تلك الخصوصية الأسلوبية يؤشر الباحث ما جاءت عليه مقدمة (مسلة حمورابي) وكذلك خاتمتها من خصوصية تعبيرية إنشائية تختلف كلياً عما جرى تداوله في المتن القانوني لموادها: «ففي القسم الثاني- أي القسم المخصص لمواد الأحكام- نقف على أسلوب الصياغة النثرية، من حيث الالتزام بمبادئ تأليف الكلام على وفق قواعد اللغة الأكديّة في عصرها البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) ... حيث الانتظام والاطراد في التزام قواعد هذه اللغة. وبالمقابلة مع الأسلوب اللغوي الخاص بقسم مواد الأحكام من الشريعة نجد أن القسمين الآخرين- أي المقدمة والخاتمة- تسودهما التعابير الشعرية المؤثرة».<sup>(٤٦)</sup>

- اختيار الحوادث والمواقف المؤثرة بالنسبة إلى مفاهيم وعرف الحضارة التي أنتجت الأدب المبحوث فيه.

ويخلص الباحث إلى القول أن ذلك كله ينطبق على تلك النصوص الأدبية «من حيث أسلوب التأليف اللغوي كوسيلة للتعبير الفني في نقل التجارب والخبرات والأحاسيس والصور إلى القارئ أو السامع».<sup>(٤٧)</sup>

وعند رصد الباحثين لسمات الأدب العراقي القديم

والقيمية التي تجسدت في نصوص لها خصوصية التمثل والتعبير، فكان أن «احتفظت آلاف الألواح والتمائيل والأعمدة الحجرية والمزهريات وأحجار الطوب ومحاجر الأبواب ومستودعات المؤسسات بنصوص شعرية ونثرية رفيعة تحوي الكثير من المعلومات حول التاريخ والدين السومريين».<sup>(٥٠)</sup> وكان لخصوصيات الطبيعة من حولهم دورها الشعوري الفاعل في تشكيل تلك الفضاءات من التأمل الجمالي الخلاق، فربما «شكلت الأهوار في أقصى الجنوب دوماً الحاضنة المادية لابتكارات الناس وهواجسهم الروحية فأطلقوا آدابهم وأساطيرهم وحكاياتهم، وأقوالهم المأثورة، ارتباطاً بالامتدادات المائية الشاسعة، معبرين عن ولعهم بالأسرار الحياتية والكونية التي يختزنها الماء والطين والزرور والخلابة».<sup>(٥١)</sup> وفضلاً عن صفة القدم المتحققة في الأدب العراقي القديم فهناك ميزة أخرى له على الآداب العالمية القديمة تلك هي أن تلك الآداب كلها «قد عانت الكثير من التحوير والإضافة على أيدي الجامعين والنساخ والشرح، في حين أن الأدب السومري والبابلي قد جاء إلينا على هيئته وبنصوصه الأصلية تقريباً، كما دون بأقلام كتبة العراق

فقد وجدوا له منها ما يعلي من شأن تميزه بين آداب الأمم التي تجاريه أو تقترب منه في تاريخية وجودها. وكان أول ما أقروا به له هي سمة القدم فهذا الأدب- طبقاً لما أقره له أكثر من باحث- أقدم آداب الأمم، حتى يجعل أحد أهم الباحثين الغربيين في تراث العراق القديم من تلك الأسبقية عنواناً لواحد من كتبه الذي جعله: التاريخ يبدأ من سومر.<sup>(٤٨)</sup> ولعل قدم هذا الإنجاز الأدبي عندهم يأتي متطابقاً مع قدم المتحقق اللغوي- بنمطيه المحكي والمكتوب- وما طوروه من إمكانات تعبيرية، لاشك في أنهم توارثوها عن أسلاف سابقين لهم<sup>(٤٩)</sup> وبذا تكون واحدة من سمات أدب وادي الرافدين قد أعلنت عن نفسها متمثلة بسمة (القدم)، لتلحق بها سمة أخرى تحققت لهذا الأدب نتيجة لحرص أهله على تدوينه، إذ قدر له أن يحافظ على بقائه يتنفس حضوره الدال عليه على الرغم من العصور والأزمات الطويلة التي مرت عليه. لقد كان ذلك الأدب واحدة من «أبرز وسائلهم لتدوين شؤون حياتهم ومعالجاتهم الفكرية



القديم على ألواح الطين قبل أربعة آلاف عام»<sup>(٥٣)</sup>، وعلى نوع خاص وصفه طه باقر بـ (الألواح الأدبية) التي هي - طبقاً لما حدده لها- الألواح التي دونت فيها النصوص الكتابية التي لا تتعلق بشؤون الحياة الاعتيادية مثل المعاملات التجارية والقانونية والرسائل وغيرها بل بالجانب الأدبي تحديداً.<sup>(٥٣)</sup>

وقد لفت انتباه الباحث نفسه الحرص التوثيقي البين من قبل مدوني تلك الألواح على تبني المسؤولية عنها، إذا جاء إلينا بعض النصوص الأدبية، وهي مذيبة بأسماء أشخاص كانوا في الغالب «نساخاً أو جامعين. وقد يكون بعضٌ منهم- ولاسيما في حالة النسخ القديمة- مؤلفي تلك القطع الأدبية أو واضعيها أو منتجبيها بأشكالها النهائية. ولعله يمكن تفسير هذه الظاهرة... بأن القسم الأعظم من النتاج الأدبي في حضارة وادي الرافدين نشأ ونما على هيئة تراث قومي شاركت في إنتاجه أجيال كبيرة من الشعراء، ولم ينفرد بإنتاجه أديب واحد».<sup>(٥٤)</sup>

(٥)

يدهش المتلقي لأدب العراق القديم أن يجده قد تداول معظم الأغراض والمضامين التي يمكن

لأي أدب إنساني حقيقي أن يتناولها. وبذا يكون هذا الأدب- فضلاً عن سبقه الزمني- قد حقق أولية في الوعي والمدرك العاطفي والحسي والجمالي المتمكن من أدواته ووعيه، وهو يتداول أنواعاً أدبية عدة، يقدم في كل منها خبراته ومواقفه وعواطفه الإنسانية الراقية، ليؤشر بذلك نضجاً في الشخصية الحضارية ورقياً وعيها لأهمية الأدب وقيمتها في تمثل التجربة الإنسانية وإغناء مجالاتها المتنوعة به، إذ «إن أدب حضارة وادي الرافدين (السومري والبابلي)، وبكلا نوعيه (الشعر والنثر الفني)، قد تناول مواضيع عديدة كانت تشغل بال القوم في حياتهم العامة والخاصة، مثل نظرتهم إلى الكون والحياة وأصل الوجود والأشياء، والمجتمع الإنساني ومشاكله، وسلوك الفرد والقيم الاجتماعية، وحياتهم الروحية والعاطفية، ومشكلة الموت وعالم ما بعد الموت والخلود، وقضية الخير والشر».<sup>(٥٥)</sup> وسواها من التأملات الإنسانية التي لا تتوقف انشغالات الإنسان عن معاشتها. وهذه الأفاق الأدبية الثرة «لا تقتصر على أنها خير ما يصور لنا حضارة وادي الرافدين بجميع أوجهها ومقوماتها، وفي أدوار ازدهارها وحيويتها وركودها وأزماتها،

بل هي كذلك على قدر كبير من الأهمية في تاريخ تطور الإنسان<sup>(٥٦)</sup> ومواقفه وتمثله التعبيري لها بمستويات أداء متعددة، تمتزج فيها الرؤى الأسطورية بما هو نضح المكابدة الإنسانية للحياة بتجلياتها الواقعية، ومتضمنة كذلك الموقف التاريخي والمكابدة المستوعبة لظرفها المعيش.

وتأتي أفكار العراقيين القدامى وتأملاتهم- وهي تتكيف أدبياً- في مجالات يصلح كل منها أن يكون غرضاً أدبياً قائماً بذاته، وهو ما سعى الباحثون إلى تبويبه عبر تقسيمات بدت فيها السمة (الموضوعاتية) أكثر وضوحاً من كونها أغراضاً محددة<sup>(٥٧)</sup>، ولاسيما مع تداخل الشعر والنثر في إنتاج تلك الأنواع الأدبية. غير أننا- مستعينين بالخبرة الراهنة في تحديد الأنواع- بإمكاننا أن نضعها في التبويب الآتي:

#### \*أدب قصصي:

ويشتمل على القصص التفسيرية عن الخليقة وأصل الكون والوجود والأشياء، والآلهة وأعمالها، ومن يتماهى معها من أشباه الآلهة والأبطال، وقصص الطوفان وأساطير عالم ما بعد الموت وقصص الحيوان<sup>(٥٨)</sup>.. وكذلك أخبار الملوك وما

سجل لهم من انجازات عمرانية وحربية.<sup>(٥٩)</sup>

#### \* الملاحم:

كملحمة (جلجامش)، و(صعود إينانا إلى السماء)، و(قصة تموز وعشتار) ونزولها إلى العالم السفلي، وملحمة (آدابا) وسواها. وهي وإن كانت ذات طابع قصصي فإن الأداء الشعري واللغة التعبيرية العالية الغالبة عليها، وكذلك النزعة الاحتفالية التي جعلت منها ممارسة خاصة من الأداء التمثيلي الذي يجري الاحتفاء به واستعادته، ذلك كله يحيلها فناً أدبياً قائماً بذاته، ولعل تناولها في مجال الشعر هو الأجدر بها، وذلك ما سنعتمده في هذه القراءة.

#### \* أدب الصلوات والابتهالات والتراتيل والأدعية والترانيم:

كانت ولا تزال «تمثل ضرورة للشرط الإنساني منذ أقدم العصور للاتصال بالقوى الفوقية»، بوصف تلك الصلوات- وما تنبني عليه من أداء لغوي وطقس تعبيري- تعد «نصاً»، أي مجموعة من الكلمات التي يراد بها الاتصال المباشر مع كائن روحي.. و(فعلاً) يراد به الاتصال بالمقدس... و(موضوعاً) أي امتداداً أو مظهراً من مظاهر التدين الذي يلتقي مع الإيمان



بالفلسفة الدينية والميثولوجيا».<sup>(٦٠)</sup>

لقد تضمن الأدب العراقي القديم على نتاج متميز في مجال الصلوات والأدعية. ويبدو أن قضية الازدواج اللغوي التي كانت سائدة لدى أبناء الرافدين حينذاك كان لها حضورها فيها، إذ كان الصلوات تقام في المعابد العراقية القديمة من قبل الكهنة باللغة السومرية وحتى وقت قريب من ولادة السيد المسيح، في حين تمكنت اللغة الأكديّة من فرض نفسها في الصلوات الخاصة بدءاً من ١٨٠٠ ق م حيث كان الشاعر الأكدي هو من يقوم بصياغة أبياته الشعرية في هذا المجال<sup>(٦١)</sup>

### \* أدب الغزل والحب

ويبرز غالباً في تلك النصوص المتعلقة بـ(الزواج المقدس)، «أي الزواج بين إله وإلهة الخصب وقيام الحاكم أو الملك وكاهنة عليا لتمثيل الإله والإلهة في ذلك الاقتران المقدس الذي ينتج عنه إحلال الخصب والخير في البلاد».<sup>(٦٢)</sup>

### \* أدب الحكمة

ويتضمن الأمثال والنصائح والأقوال ذات البعد التأملي الحكيم في مختلف مجالات الحياة وشؤونها المعيشة. وللحكمة صاحبها الذي «خبر

الدنيا، وتعلم منها التجارب ، وأصغى إلى أحكام سواه، حتى عد مرجعاً يعتد الناس برأيه».<sup>(٦٣)</sup>، وهو من يؤسس لمنطوقها الذي يتداوله الآخرون من حوله، لتصبح تلك الحكمة ملكاً لهم جميعاً. «وقد صنّف أدب الحكمة السومري هذا شكلياً إلى ما بين خمسة وأحد عشر صنفاً رئيساً، والاختلاف يعتمد على ما إذا ضمت بعض الأشكال الأدبية كالحكم والوصايا والأمثال والنصائح تحت العنوان العام(الأمثال) أم أنها اعتبرت أصنافاً مستقلة».<sup>(٦٤)</sup> ولعل في أن تكون الأمثال أكثر أصناف أدب الحكمة شيوعاً في لغتهم<sup>(٦٥)</sup> الدليل على نضج التجربة الإنسانية لدى العراقيين القدامى، فضلاً عن التطور في الأداء اللغوي الذي تحققت مقدرته عندهم في الإيجاز البليغ الذي يقتضيه المثل.

لقد استوعبت حكمهم وأمثالهم الدعوة إلى تفضيل العلم وأهله والسعي إلى العمل وبذل الجهد لتحقيق الحياة الإنسانية الأفضل. كما تضمنت إشارات إلى ما يرتجى من العلاقات الاجتماعية المحمودة، وإلى مكانة المرأة عندهم، وسواها من الانشغالات الإنسانية العامة.<sup>(٦٦)</sup>

### \* أدب الرثاء

نال هذا الغرض اهتمام العراقيين القدامى، حتى ليعده بعض الدارسين «من المواضيع الواسعة والمتشعبة، حيث يغطي حقبة زمنية طويلة، شملت معظم العصور الحضارية لبلاد الرافدين»،<sup>(٦٧)</sup> وبما يجعله «نمطاً خاصاً قائماً بذاته ضمن الأدب العراقي القديم».<sup>(٦٨)</sup>

لقد تمثلت في هذا الغرض الأدبي طبائع تعبيرهم المنفعل ومشاعرهم الحزينة تجاه الحوادث المختلفة، سواء ما كان منها في النطاق الذاتي أم في الكوارث السياسية أو الطبيعية التي تحيق بوجودهم المجتمعي بعامه. وربما أمكن- ومن خلال تأمل ما وثقه هذا المنجز الأدبي الوقوف على تصور وقائعي لبعض الأحوال والظروف التي مرت بهم، حتى ليتمكن عد ماحواه هذا الغرض نوعاً «من كتابة التاريخ بأسلوب أدبي مؤثر له بعد وطني واضح».<sup>(٦٩)</sup>

ويمكن رصد ماحواه هذا الغرض الأدبي- فضلاً عن المراثي الشخصية- فيما جرى تدوينه من رثاء المدن، ومراثي الآلهة والملوك.<sup>(٧٠)</sup>

(٦)

**يطرح الأستاذ (طه باقر)- بشأن الشعر- التساؤل الآتي:**

- «كيف نستطيع أن نميز التراكيب والمفردات الشعرية في أدب العراق القديم وقد مضى على النتاج الأدبي الذي جاء إلينا من القوم قرون كثيرة من السنين تبعدنا عن تفهم أذواق ذلك العصر اللغوية والأدبية؟».<sup>(٧١)</sup>

ويسارع بتقديم الإجابة التي يراها الفصل في هذا المجال، فيقول: «إن التعرف التام على لغة تلك الحضارة والإلمام بأسرار أساليبها اللغوية، واتباع منهج المقارنة بين الأساليب النثرية والأساليب الشعرية فيها، كل هذا يمكّن الباحث المختص أن يميز ما بين الأسلوبين الشعري والنثري الاعتيادي».<sup>(٧٢)</sup>

ولاشك في أن حديث الشعر- وبعيداً عما أشره كلام الأستاذ (طه باقر) آنف الذكر- يذهب بنا إلى استعادة الرأي الذي توصل إليه الباحثون بإجماع عن كونه الأقدم بين ما زاوله الإنسان من الفنون الأدبية، كونه خطاباً عاطفياً رافق طفولة الإنسان، وتطور مع تطور نزعتيه في التعبير اللغوي الخاص عن مشاعره وأحاسيسه، سابقاً في ذلك النضج المعرفي الذي تبنته معارفه وعلومه ذات النزعة العقلية. وهنا فنحن لا نعني نفي أسبقية الأداء اللغوي (النثري) المباشر والنفعي



الذي مارسه الإنسان شفاهياً وطوره بعد ذلك، ليؤطره مدوناً بأشكال كتابية تطورت هي أيضاً، بل نشير إلى قصدية تخيره لأنماط لغته بين علميتها وأدبيتها المكرسة في الشعر التي تؤكد أسبقيته التي جاءت مؤصلة له من خلال الغناء والإنشاد الشعبيين إذ «أن الكلمة التي تطلق على الشعر في أدب حضارة وادي الرافدين، وهي كلمة (شيو) البابلية، و(سير) أو (شر) السومرية- التي ظهرت في نظام الكتابة المسمارية منذ أول ظهور الكتابة<sup>(٧٢)</sup> - تعني في أصلها الغناء

والإنشاد والترنم»،<sup>(٧٤)</sup> وهو الرأي الذي يأتي دعمه عند الأستاذ (طه باقر) من خلال القول: «إن هذا المصطلح اللغوي موجود في جميع اللغات العربية القديمة (السامية) مثل (شير) العبرانية، و(شور) الآرامية (وكلها فقدت حرف العين). ومن ذلك المصطلح العبراني (شير هشريم) وهو (نشيد الإنشاد) المنسوب إلى سليمان في التوراة. ومن قبيل ذلك ما جاء في المآثر العربية عن أصل العروض والوزن في الشعر أنه من الغناء وحذاء الإبل، والمصطلح الأدبي المألوف في رواية الشعر: (أنشد فلان)».<sup>(٧٥)</sup>

لم يتوقف أمر الشعر عند العراقيين القدامى

بحدود معرفة المفردة الدالة عليه وتداولها، فهم قد توافروا على كثير من أنواعه وقوالبه، وأساليب الأداء من خلاله، وهو ما يفصل الأستاذ (طه باقر) فيه على وفق اشتراطات الوعي الراهن، حين يقول: «نسير في تحديد مفهوم الشعر في النصوص الأدبية التي جاءت إلينا من حضارة وادي الرافدين على الأسس والمبادئ الماثورة (الكلاسيكية) المتبعة في دراسة الآداب العالمية وتصنيفها إلى شعر ونثر أدبي»،<sup>(٧٦)</sup> وهي بحسب تراتبيتها عنده:

- وجود الإيقاع الخاص، الذي يعد الوزن أو العروض أسه الخاص، إذ «يعتمد الوزن- أي العروض- في الشعر البابلي مثل أشعار بعض الأمم الأخرى- كالشعر العربي واليوناني واللاتيني وغيرها- على مبدأ تجزئة الكلمات إلى مقاطع تتناوب ما بين المقاطع الطويلة والمقاطع القصيرة، أي- بحسب العروض العربي (الأوتاد) و(الأسباب) التي أساسها الحركة والسكون، وفي بعض الأشعار الأخرى (النبزات) أي التشديد والتخفيف.<sup>(٧٧)</sup> ويجمع عدة مقاطع يتألف ما يصطلح عليه في الشعر العربي (التفعيلات)، أي ما يضاها (foot) الشعر الانكليزي. ثم يجمع عدة

تفعيلات يتكون شطرا البيت. وعلى هذا الشكل جاء إلينا الشعر البابلي مدوناً على ألواح الطين. وقد يترك الكتبة فواصل ما بين شطري البيت، أي ما بين الصدر والعجز، وما بين الوحدات الشعرية الأكبر في بعض الأحيان<sup>(٧٨)</sup>. وهو ما يؤشر أنهم اعتمدوا نظاماً خاصاً في تأليف هذا الكلام الموزون «من حيث تقسيمه إلى وحدات صغيرة وضم هذه الوحدات في مجموعات أكبر منها، كالبيت والبيتين والأربعة أبيات والقصيدة»<sup>(٧٩)</sup>.

وفضلاً عن الوزن فقد انضاف للإيقاع الشعري عندهم ما يمكن تسميته بـ (اللازمة) أو (القرار) الذي يمثل (عبارة) تتكرر على نحو متواصل في القصيدة أو الأغنية<sup>(٨٠)</sup>.

ولعلمهم- وللاتساع الدلالي في لغتهم قد توصلوا إلى قيمة (الجناس)- الذي يعتمد فيه واحدة المفردة وتعدد معانيها<sup>(٨١)</sup>- لينجزوا شكلاً شعرياً رأى فيه بعض الباحثين ما يجعله قريباً من (الأبوزية)<sup>(٨٢)</sup> المتداولة في الشعر الشعبي العراقي، بل ربما عد ذلك القديم تأصيلاً لها<sup>(٨٣)</sup> ولاسيما حين لا نجد من يتداول هذا الشكل الشعري سوى العراقيين، وأهل الجنوب منهم تحديداً.

- انتقاء مفردات لغوية خاصة بلاغية، أي ما يسمى بالألفاظ الشعرية- من حيث الجرس اللفظي والمعنى بالنسبة إلى مقاييس اللغة التي ينظم فيها الشعر. ويدخل في هذا تركيب خاص في الكلام يختلف عن الاستعمالات المتبعة في النثر.

- الموضوع والمحتوى الذي يتناوله الشعر والتعبير عن ذلك بتعابير مؤثرة في السامع أو القارئ.

- أما المبدأ الخامس وهو القافية (rhyme) فعند الباحث أن الشعر العراقي القديم لم يلتزم بها، فكان هذا الشعر- سواء أكان سومرياً أم بابلياً- موزوناً، ولكنه غير مقفى.

وحين تتأمل الموضوعات التي تداولتها الشعرية العراقية القديمة فسنجد أنها لاتكاد تغادر أياً من أغراض الأدب وموضوعاته عندهم، بل لعل الصياغة الشعرية هي الغالبة على إنتاجهم الأدبي بأفأقه كلها، وبه قدموا كثيراً من ترانيمهم وأدعيتهم وصلواتهم وقصصهم وأساطيرهم. وحين تهيأ لهم أن يواشجوا بين السرد وكثير من منجزهم الشعري، فقد قدر لهم أن يقدموا للبشرية واحدة من أهم الأنواع الشعرية وأخصبها: الملحمة.



(٧)

ولعلها من هنا استمدت توصيفها بالملحمة الذي استوقف أحد الباحثين الغربيين فرأى أن هذا الشكل الأدبي استحق وصفه بالملحمة وليس الأسطورة «نظراً لأن المساهمين فيها هم من البشر أكثر من كونهم من الآلهة».<sup>(٨٨)</sup> التي تتماهى الأساطير في التعبير عن شؤونها وحدها. لا يتسع المجال- في قراءتنا هذه- للإشارة إلى وقائع (ملحمة جلجامش) وتفصيلاتها فهي من التداول والشهرة بما يجعل ذلك حديثاً مكروراً، لا يضيف جديداً.<sup>(٨٩)</sup>، ولذلك نكتفي بالقول أنها جسدت- وعلى نحو عال من النضج- وعي الإنسان العراقي القديم لظاهر وجوده وما يكتنفه من حيوية فعل وأدوار من الحياة يعيشها، لتجيء خاتمة ذلك كله الحقيقة الصادمة عن نهاية ذلك كله بين يدي الموت الذي لا يفرق بين البشر فهو مآلهم جميعاً، حاكمهم ومحكومهم، غنيهم وفقيرهم. ومن هنا بدت فيها نزعة (الثورة على الموت) التي «نلقاها في صورة سخط مكتوم وإحساس دفين بالظلم. وهي إحساس أكثر منها تفكير. ولكن مما لا يرقى إليه الشك هو أن هذا الإحساس منشؤه الفكرة الجديدة عن حقوق الإنسان والمطالبة بالعدالة في

تعد (ملحمة جلجامش)<sup>(٨٤)</sup> المثال الأرقى لما وصل إليه الأدب العراقي القديم، بل لعلها- طبقاً لرأي أحد الباحثين الغربيين- «وبالمفهوم الحديث المحدد لكلمة (أدب) أعظم- وبالتأكيد أطول تأليف أكدي».<sup>(٨٥)</sup> كما أنها «أقدم نوع من أدب الملاحم البطولية في تاريخ جميع الحضارات، وإلى هذا فهي أطول وأكمل ملحمة عرفتتها حضارات العالم القديم».<sup>(٨٦)</sup> ومن هنا فقد تناولها بالاستعادة والتأمل والتدارس كل من اهتم بتراث العراق القديم وآدابه من العراقيين والعرب والأجانب، سواء بترجمتها أو إعادة صياغتها نثراً أو شعراً.<sup>(٨٧)</sup> احتوت الملحمة على صنوف الأدب وأنواعه كلها، فهي سرد وشعر وأمثال وحكمة ووقائع وأسماء وتاريخ، وذلك كله يأتي بصياغة أدبية خاصة بها وحدها، جعلتها مثلاً متميزاً ومتقدماً على سواها من الملاحم الشعرية الإنسانية التي جاءت بعدها. وكما تداخلت فيها الأنواع الأدبية كلها فقد تعاضد في تجسيدها وجود كوني مشتبك، فهناك الآلهة والبشر والطبيعة والحيوان والنبات. إنها فضاء اتسع لحيوات الموجودات والأشياء كلها،

الكون. فالموت شر، وهو في قسوته أكثر شراً من أي عقاب بل هو العقاب الأكبر». (٩٠) ومن هنا فإن أي مسعى لمغادرة النواميس المقدرة على البشر سيكون مآلها الفشل والخسران، وليس للإنسان إلا أن يقتنع بحصته المقدرة من الحياة، يحيها، ويشبع فيها لذائذ جسده من المشاعر والعواطف واحتياجات الجسد. هكذا تلخص (صاحبة الحان) الأمر لجلجامش الذي تسربل بعناده، باحثاً عن الخلود:

«إلى أين تسعى يا جلجامش

إن الحياة التي تبغي لن تجد

حينما خلقت الآلهة العظام البشر

قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة

أما أنت يا جلجامش

فليكن كرشك مليوناً على الدوام

وكن فرحاً مبهتجاً نهار مساء

واجعل ثيابك نظيفة زاهية

واغسل رأسك واستحم في الماء

ودلل الصغير الذي يمسك بيدك

وافرح الزوجة التي بين أحضانك

وهذا هو نصيب البشرية» (٩١)

و**خلاصة القول** «إن ملحمة جلجامش تبقى أبرز نتاج أدبي فاضت به قرائح الشعراء والأدباء، وهي بحق درة النتاج الأدبي في حضارة بلاد وادي الرافدين، وأقدم نموذج من أدب الملاحم في تاريخ الحضارات». (٩٢)

ويبدو أن حضور هذه الملحمة الفاتنة لعصرها والعصور اللاحقة لم يتوقف عند وجودها النصي اللغوي، بوصفها «قصيدة شعرية طويلة مدونة بالخط المسماري واللغة البابلية» (٩٣)، بل تعداها إلى أن تستدرج الفنون الأخرى (التمثيلية والتشكيلية) لاستثمار مضامينها في تمثلات فنية مثيرة، فإذا «كانت لعبة التمثيل الدرامي لقصة الخليقة البابلية بكل تفصيلاتها وتسلسلها قد أصبحت من المظاهر الملازمة لاحتفالات رأس السنة، وهو احد الأدلة البارزة في وجود الحس الدرامي في بلاد الرافدين، فإن هناك إشارات مثبتة لا تقتصر دلالتها على أن الاحتفالات كانت تضم فقط هذا النشاط التمثيلي في تقديم قصة الخليقة وإعادة تقديمها على شكل درامي فقط، وإنما يتعدى ذلك إلى تقديم أجزاء من (ملحمة جلجامش) في احتفالات العام الجديد» (٩٤).. وعلى هذا يمكن القول أنها «أول ملحمة في



تاريخ العالم القديم تمثل أحداثها بصورة  
 درامية وباستخدام الأقنعة والملابس  
 التنكرية المختلفة».<sup>(٩٥)</sup>  
 أما على صعيد التجسيم التشكيلي لهذه الملحة  
 في الخزف العراقي القديم «فهناك الكثير من  
 الأختام الاسطوانية والألواح الطينية، وشواهد  
 أثرية أخرى صورت لنا مشاهد مختلفة من  
 الملحة»<sup>(٩٦)</sup>

### الهوامش والإحالات:

- (١) طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص٦.
- (٢) ينظر: فاضل عبد الواحد، من ألواح سومر إلى التوراة، ص٢٣٩. و:غلين دانيال، الحضارات الأولى-الأصول والأساطير، ص٥٣، و:عامر سلمان، محاضرات في التاريخ القديم (مشترك)، ص٢٧.
- (٣) وقد كتب بالعلامات المسمارية التي تقرأ (ki.en.gi) وتعني حرفياً (أرض سيد القصب، وكتب المصطلح باللغة الأكديّة على هيئة (مات شوبيرم) أي (بلاد السومريين). ومن أهم المدن في بلاد سومر: نفر والوركاء ولارسا وابسن وأدب وشورباكوأور وأريدو. (ينظر: سليمان، ص٢٥).
- (٤) المصدر نفسه، «ويكتب المصطلح بالعلامات المسمارية التي تقرأ (ki.uri) التي لايعرف معناها بالضبط، بينما يكتب باللغة الأكديّة على هيئة (مات أكديم) أي بلاد الأكديين، نسبة إلى مدينة أكد .. ومن أهم المدن إضافة الى العاصمة أكد: سبار، كوثا، بابل، كيش، بورسبا». سليمان، ص٢٥.
- (٥) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٦. و: دانيال، ص٥٤، قوله: أن سومر هي الأرض التي أطلق عليها بعد ٢٠٠٠ ق م، اسم بلاد بابل.
- (٦) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٦، حيث قوله: «نسبة الى السوبارتين، وهم من جملة الأقوام الجبلية التي استقرت في القسم الشمالي من البلاد في منطقة الجزيرة العليا وشرقي دجلة وقد ورد مصطلح (بلا سوبارتو) في النصوص البابلية مرادفاً لمصطلح (بلاد آشور).
- (٧) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٧.
- (٨) المصدر نفسه.
- (٩) ينظر: المصدر نفسه، ص٢٧. و: عبد العزيز لازم، أدب الحكمة والنصيحة في العراق القديم، ص٧. وسهل بلاد شنعار هو أرض ما بين النهرين التوأمن (دجلة والفرات). (ينظر: دانيال، ص٥): «وقد أطلق الإغريق على هذه الأرض اسم (ميزوبوتاميا)، وهي كلمة تعني بلاد ما بين النهرين ... في هذه المنطقة، وبالذات في الجنوب منها تحققت الحضارة السومرية في الوجود في النصف الثاني من الألفية الرابعة قبل الميلاد».
- (١٠) هاري ساكز، عظمة بابل، ص٢٣.
- (١١) من أهم مؤلفات طه باقر:  
 - موسوعة تاريخ الحضارات القديمة (جزآن).  
 - المرشد إلى مواطن الآثار والحضارة (ستة أجزاء).  
 - مقدمة في أدب العراق القديم  
 - موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة.  
 - ملحمة جلجامش.  
 - من تراثنا اللغوي القديم- ما يسمى بالعربية بالدخيل.
- (١٢) يكاد الباحثون العراقيون يجمعون على تداول ما كرسه الأستاذ (طه باقر) من مسمى، في حين يصّر كثير من الباحثين الغربيين على استخدام وصف (بلاد ما بين النهرين).

- (١٣) ينظر: سلمان، ص ٢٦.
- (١٤) المصدر نفسه، ص ٢٨.
- (١٥) المصدر نفسه.
- (١٦) ينظر: رايموند ويليامز، الثقافة والمجتمع، ص ١٠.
- (١٧) سلمان، ص ١١.
- (١٨) المصدر نفسه.
- (١٩) أحمد خورشيد النوره جي، مفاهيم في الفلسفة والاجتماع، ص ١١٩.
- (٢٠) يذكر طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ١٠ أن هذه التسمية من تعبير المؤرخ (أرلوند توينبي)، ويصفها بأنها «الحضارات التي لم تشتق من حضارة سابقة لها، بل نشأت وتطورت من ثقافات عصور ما قبل التاريخ. والحضارات الأصلية قليلة العدد في تاريخ الإنسان، وفي مقدمتها حضارة وادي الرافدين، وحضارة وادي النيل، وحضارة الشرق الأقصى (الحضارة الصينية) وحضارة (المايا والأزتيك) في أمريكا الوسطى، وحضارة وادي نهر السن».
- (٢١) سلمان، ص ١١.
- (٢٢) ينظر: دانيال، ص ٥٥ حيث يقول: «ابتكر المستشرق الأمريكي الكبير (جيمس برستيد) عبارة (الهلل الخصب) لتطلق على المروج والروابي التي تمتد من مصر وتمر بفلسطين إلى شمال بلاد الرافدين وغرب إيران».
- (٢٣) المصدر نفسه، ص ٤٨.
- (٢٤) هامش: يقول أحد الباحثين الغربيين «ربما كان هناك شيء خاص في تكوينهم، لكنني لا أجد أفضل من أنهى هذا الفصل بجملة من كريم: «إن العامل النفسي المسؤول إلى حد ليس بقليل عن كل من الانجازات المادية والثقافية لدى السومريين كان دافعاً يتخلل كل شيء ويتأصل في الأعماق من أجل البروز والتميز والنصر والنجاح» دانيال، ص ١٠٣.
- (٢٥) طه باقر، ملحمة جلجامش، ص ٩.
- (٢٦) لازم، ص ١١.
- (٢٧) ينظر: باقر مقدمة في أدب العراق القديم، ص ٣٥. و: فاضل عبد الواحد، ص ٢٣٩ وما بعدها.
- (٢٨) باقر، ملحمة جلجامش، ص ٣١.
- (٢٩) مجموعة مؤلفين، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، ص ١٤٨.
- (٣٠) د. احمد سوسة، حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين، ص ١٥٧.
- (٣١) طه باقر، ملحمة جلجامش، ص ٣١.
- (٣٢) مجموعة مؤلفين، ص ١٥٠.
- (٣٣) المصدر نفسه.
- (٣٤) المصدر نفسه، ص ١٥٣.
- (٣٥) المصدر نفسه.
- (٣٦) عبد الواحد، ص ١٢٣.
- (٣٧) ينظر: طه باقر، من تراثنا اللغوي، ص ٩ وما بعدها. و: علاء اللامي، الحضور العربي والآرامي والعربي الفصحى في لهجات العراق والشام العامية، ص ٨١ وما بعدها.
- (٣٨) ينظر: باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ٣٧، ينظر: ملحمة جلجامش، ص ٢٥ وما بعدها.
- (٣٩) سوسة، ص ١٥٤.
- (٤٠) باقر، ملحمة جلجامش، ص ٢٧. ويؤيد هذا الرأي قول عبد العزيز لازم، أدب الحكمة والنصيحة، ص ١١١: «لقد استمرت اللغة السومرية لغة التعليم خلال الفترة البابلية والآشورية أيضاً. وقد سجل الحكيم البابلي في جملة من الأقوال المأثورة التي راح يتداولها سكان العراق في ظل الحكم البابلي. يقول الحكيم: «الكاتب الذي لا يعرف اللغة السومرية كيف يستطيع إيصال الترجمة بشكل دقيق».
- (٤١) ينظر: باقر، ص ٤٩.
- (٤٢) عبد الواحد، ص ١٤٥.
- (٤٣) باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ٥.
- (٤٤) باقر، ملحمة جلجامش، ص ١١.
- (٤٥) باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ١٥.
- (٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٩ وينظر: فوزي رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ص ١١٣.
- (٤٧) باقر، ملحمة جلجامش، ص ٣٠.
- (٤٨) ينظر: صاموئيل نوح كريم، التاريخ يبدأ من سومر. ص ١٣. وباقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ٣٢.
- (٤٩) هامش: يقول طه باقر، ص ٣٥: «ومن الطريف ذكره بهذا الصدد أنه مع هذا القدم الموهل في الزمن فإن أدباء العراق عدوا أنفسهم حديثي العهد في



- الحضارة، وأنهم وراثاء ماضٍ مجيد متقادم العهد، تخيلوه على هيئة عصر ذهبي كان الخير والسلام يسودان الأرض فيه فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تتنازع الإنسان البقاء».
- (٥٠) لازم، ص ١٤.
- (٥١) المصدر نفسه، ص ٨.
- (٥٢) باقر، ملحمة جلجامش، ص ١٣.
- (٥٣) ينظر: باقر، المصدر نفسه، ص ١٥.
- (٥٤) باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ٥٢.
- (٥٥) باقر مقدمة أدب العراق القديم، ص ٦٩، و: فاضل عبد الواحد، ص ١٤٥.
- (٥٦) المصدر نفسه، ص ٦٩.
- (٥٧) ينظر: باقر، ملحمة جلجامش، ١٦-١٧.
- (٥٨) ينظر: المصدر نفسه، ص ٧١ وما بعدها.
- (٥٩) يقول طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ٤٠: «اعتاد الملوك الآشوريون أن يصطحبوا في حملاتهم الحربية- بالإضافة إلى المهندسين وآلات الحرب والعربات الحربية الضخمة- عدداً من الكتاب لتسجيل سير المعارك. وإن أولئك الكتاب الأدباء المجهولة أسماءهم هم الذين خلفوا لنا تلك القطع الأدبية الرائعة في النثر الأدبي أو الشعري. «فإن» الكتب البابليين خلفوا لنا أيضاً نماذج من النثر الفني في تصوير زحف الجيوش وأحوال السير واحتدام المعارك».
- (٦٠) فالح مهدي، صلوات الإنسان من سومر إلى الإسلام، ص ٨.
- (٦١) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٧.
- (٦٢) باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، ص ١٨٨.
- (٦٣) حسب الله يحيى، ذاكرة القراءة، ص ١٥٦.
- (٦٤) ساكز، ص ٤٨٤.
- (٦٥) ينظر: المصدر نفسه.
- (٦٦) لازم، ص ٢٦.
- (٦٧) حكمت بشير الأسود، أدب الرثاء في بلاد الرافدين، ص ١١.
- (٦٨) المصدر نفسه.
- (٦٩) المصدر نفسه.
- (٧٠) المصدر نفسه.
- (٧١) باقر، ملحمة جلجامش، ص ٣٧.
- (٧٢) المصدر نفسه، ص ٣٨.
- (٧٣) المصدر نفسه، ص ٢٩، وقوله: «لا يمكن الجزم هل أن أصل كلمة الشعر السومرية (سر أو شر) مأخوذ من الكلمة البابلية (شيرو) أو العكس .
- (٧٤) باقر، ملحمة جلجامش، ص ٢٨.
- (٧٥) المصدر نفسه، ص ٣٠.
- (٧٦) المصدر نفسه، ص ٣٠ وما بعدها.
- (٧٧) يقول طه باقر، ملحمة جلجامش، ص ٣٠ «لا يمكن الوقوف على أوزان الشعر السومري بوجه مضبوط بحسب معرفتنا الراهنة. على أن الحال يختلف بالنسبة إلى اللغة البابلية وشعرها بسبب ... من وشائج القربى القوية ما بين اللغة البابلية وبين أخواتها من اللغات السامية المعروفة التي لا يزال بعضها محكياً، وفي مقدمتها العربية والعبرانية والآرامية».
- (٧٨) المصدر نفسه، ص ٣١.
- (٧٩) المصدر نفسه.
- (٨٠) ينظر: الأسود، ص ٢١. وينظر مصدره .
- (٨١) يسميه ابن رشيق، العمدة ج ١، ص ٣٢١، (المماثلة)، «وهي أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى».
- (٨٢) ينظر: الحاج هاشم الرجب، الأبونية، ص ٩.
- (٨٣) السياب، مجلة الفنون، بغداد العدد ٢٢، آب ١٩٥٧م، ص ٨ يقول السياب: «لقد قرأت بعض القصائد البابلية القديمة، واستطعت أن أمسك ببعض العروق التي تصل الشعر البابلي بالأبونية العراقية، ومنها موضوع التكرار... إن الأبونية ما هي إلا امتداد للشعر العربي البابلي القديم نتج عن طبيعة الحوافز المؤثرة عليها تأثيراً متشابهاً» .
- (٨٤) عن صيغ لفظ الاسم في الكتابات المسمارية، ينظر: باقر، الملحمة، ص ٥١. وقد تداول هو الاسم (جلجامش)، في حين جعله عبد الحق فاضل (قلقميش)، أما (غلامش) فورد عند جبرا في ترجمته، ص ٢٤٦ وما بعدها. ويقول ساكز، ص ٤٤٥: «إن الملحمة «تسمى بالأكدية باسم السطر الأول منها (شي نقب امر sa nagba imuru) - أي المذي رأى العمق».
- (٨٥) ساكز، ص ٤٤٥ .

- (٨٦) باقر، ملحمة جلامش، ص ٤١.
- (٨٧) ينظر: المصدر نفسه، ص ٥٨ وما بعدها .
- (٨٨) ساكز، ص ٤٤٦.
- (٨٩) ينظر: باقر ملحمة جلامش، ص ٧٣. عبد الحق فاضل، ص ١٧٦.
- (٩٠) مجموعة مؤلفين، ص ٢٤٦.
- (٩١) باقر، ملحمة جلامش، ص ١٣-١٣٨.
- (٩٢) عبد الواحد، ص ١٤٧.
- (٩٣) المصدر نفسه، ص ١٤٧.
- (٩٤) محمد صبري، المسرح العراقي القديم، ص ٣٧.
- (٩٥) المصدر نفسه، ص ٤١.
- (٩٦) المصدر نفسه، ص ٣٩. وينظر: باقر، ملحمة جلامش، ص ٥٢ وما بعدها.
- \*مصادر الدراسة ومراجعتها:**
- \* الأسود، حكمت بشير:**
- أدب الرثاء في بلاد الرافدين، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٨م.
- \* باقر، طه**
- مقدمة في أدب العراق القديم، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦م.
- ملحمة جلامش، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م.
- \* دانيال، غلين:**
- الحضارات الأولى- الأصول والأساطير، ترجمة سعيد الغانمي، كتاب دبي الثقافية، دار الصدى للطباعة والنشر، دبي، ٢٠٠٩م.
- \*الرجب، الحاج هاشم محمد:**
- الأبوزية، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، الدوحة، ١٩٨٨م.
- \*رشيد، د. فوزي:**
- الشرائع العراقية القديمة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩م.
- \*ابن رشيق، أبو علي الحسن:**
- العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م.
- \* ساكز، هاري:**
- عظمة بابل، - موجز حضارة وادي دجلة والفرات القديمة، ترجمة وتعليق الدكتور عامر سليمان، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، د.ت.
- \* سلمان، د. عامر:**
- محاضرات في التاريخ القديم (مشترك)، مطابع جامعة الموصل، الموصل، ١٩٧٨م.
- \*سوسة، د. احمد:**
- حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين، دارالحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م.
- \*السياب، بدر شاكر:**
- مجلة الفنون، بغداد العدد ٢٢، آب، ١٩٥٧م.
- \* صبري، محمد:**
- المسرح العراقي القديم، مطبعة المعارف، د.ت.
- \* عبد الواحد، فاضل:**
- من ألواح سومر إلى التوراة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩م.
- \* فاضل، د. عبد الحق:**
- هو الذي رأى - ملحمة قلقميش، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨١م.
- \* لازم، عبد العزيز:**
- أدب الحكمة والنصيحة في العراق القديم، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٢م.
- \*اللامى، علاء:**
- الحضور العربي والآرامي والعربي الفصحى في لهجات العراق والشام العامة، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ٢٠١٢م.
- \*مجموعة مؤلفين:**
- ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
- \*كريم، صموئيل نوح:**
- التاريخ يبدأ من سومر. ترجمة ناجية المراني، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠م.
- \* مهدي ، فالح:**
- صلوات الإنسان من سومر إلى الإسلام، المركز العلمي العراقي، بغداد، ٢٠١٠م.
- \* النوره جي، أحمد خورشيد:**
- مفاهيم في الفلسفة والاجتماع، دار الشؤون الثقافية



العامّة، بغداد، ١٩٩٠ م.

\* يحيى، حسب الله:

- ذاكرة القراءة، دار آراس للطباعة والنشر،

أربيل، ٢٠١٢ م.

---

---

## The ancient Iraqi literature reception in the efforts of modern Researchers

Dr. prof. Ali Haddad

### Abstract

The ages of the ancient Iraqi civilization, which on the land of Mesopotamia produced a rich and varied literary offer, The various literary arts included poetry with its narrative and lyrical content, Its purposes, and the literary narratives that are represented in myths, stories, proverbs and wisdoms.

After the strenuous efforts of exploration missions, It has extracted many of the old Iraqi heritage and put it within the reach of reading, study and research has found many contemporary researchers of Iraqis and foreigners between the available in their hands of the number of that civilization and its blogs a large area of literary work, which they cared about and highlighted the contents, And translated from the original language into modern languages, including Arabic This research came to check their efforts and reflect them and reflect their ideas about them and the nature of the impact that is still present in the types of Iraqi literature, especially popular in his stories and hymns and its ilk .



العدد الثالث والرابع  
2017